محمد بن صبيح بن سماك

مواقف ومواعظ
من حياة التابعين

[17]

محمد بن صبيح بن سماك

محمد بن صبيح بن سماك

نسبه:

هو: محمد بن صبيح بن سماك.

كنيته:

يكنى أبا العباس.

وابن سماك: نسبة إلى بيع السمك وصيده.

وهو: مولى بني عجل.

كان قاضيًا كوفيًا زاهدًا مشهورًا.

وكان أبو العباس يتثمل بهذين البيتين:

::

الأجل في القبور في خطر : فرده يومًا وانظر إلى خطره

أبرزه الموت من منكبه :: ومن معاصيره ومن حجره

:

وكان يقول:

- الأخذ بالأصول وترك الفضول من فعل ذوي العقول.

وكان أبو العباس يتردد على مجلس أمير المؤمنين هارون الرشيد، وكان الرشيد يسأله كثيرًا في تفسير آيات الذكر الحكيم.

وذات ليلة سأله:

- ما تقول يا أبا العباس في: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾} [سورة النازعات الآيتان: ٤٠ - ٤١].

قال ابن السماك:

- يا أمير المؤمنين: ترك الهوى مفتاح الجنة.

ثم قال:

- أبشر يا أمير المؤمنين: فإنك من أهل الجنة.

فتناول أمير المؤمنين هارون الرشيد:

- ومن أين لك هذا؟

قال أبو العباس:

من قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾} [سورة النازعات الآيتان: ٤٠ - ٤١].

فسُر هارون الرشيد بذلك.

أنا من أهل الجنة:

حلف أمير المؤمنين هارون الرشيد أنه من أهل الجنة، فاستفتى العلماء، فلم يفته أحد بأنه من أهلها، فقيل له:

- يا أمير المؤمنين: سل ابن سماك.

فاستحضره وسأله، فقال أبو العباس:

- هل قدر أمير المؤمنين على معصية فتركها خوفًا من الله تعالى؟

فقال أمير المؤمنين هارون الرشيد:

- نعم، كان لبعض ألزامي جارية فهويتها وأنا إذ ذاك شاب، ثم إني ظفرت بها مرة وعزمت على ارتكاب الفاحشة معها، ثم فكرت في النار وهولها وأن الزنا من الكبائر، فأشفقت من ذلك، وكففت عن الجارية مخافة من الله تعالى.

فقال محمد بن صبيح: { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ } [سورة النازعات الآيتان: ٤٠].

قلوب الواصلين:

خرج محمد بن صبيح بن سماك ذات يوم من العراق يريد بعض الثغور، فبينما هو يسير في جبل مظلم، إذ نظر إلى ع ابد على رأس الجبل قد انفرد من المخلوقين واستأنس برب العالمين ﷻ، فسلم عليه، فردَّ السلام، ثم قال:

- من أين أقبلت؟

قال أبو العباس محمد بن صبيح بن سماك:

- من العراق، أريد بعض الثغور.

فقال:

- إلى أمر توقنونه أو إلى أمر لا توقنونه؟

قال ابن سماك:

- لا، بل إلى أمر لا توقنه.

ثم قال العابد:

- آه.

فقال محمد بن صبيح بن سماك:

- مم يئوَّه العابد؟

قال العابد:

- ذكرت عيش المستريحين، وفرحة قلوب الواصلين.

فقال أبو العباس:

- إني رجل مهمومٌ.

قال العابد:

- مم همك؟

قال محمد بن صبيح:

- في ثلاث.

قال العابد:

- وما هذه؟

قال ابن سماك:

- ما دليل الخوف؟

قال العابد:

- الحزن.

فتساءل أبو العباس:

- فما دليل الشوق؟

قال العابد:

- الطلب.

فقال محمد بن صبيح بن سماك:

- فما دليل الرجاء؟

قال العابد:

- العمل.

فتساءل ابن سماك:

- فمن أين ضرعنا؟

قاله العابد:

- لأنكم وثقتم بعفو الله عنكم، ولو عاجلكم بالعقوبة لهويتم من معصية طاعته، ولكن حلمه وستره على معصيته.

ثم أنشأ يقول:

إن كنت ما أ ق ول وتعقل :: فارحل بنفسك قبل أن لربك ترحل
وذر الشاغل بالذنوب وخلها :: حتى متى و إلى متى تتململ

ابن سماك يكتب إلى هارون الرشيد:

ذات ضحى بعث أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى أب ي العباس محمد بن صبيح ابن سماك، فدخل وعنده يحيى بن خالد البرمك ي فقالى يحيى:

إن أمير المؤمنين أرسل إليك لما بلغه من صلاح حالك في نفسك ولكثرة ذكرك لربك عز وجل ودعائك للعامة.

فقال أبو العباس:

أما ما بلغ أمير المؤمنين من صلاحنا في أنفسنا، فذلك بستر الله علينا، فلو اطلع الناس على ذنب من ذنوبنا لما أقدم قلب لنا على مودة، ولا جرى لسان لنا بمدحه، وإني لأخاف أن أكون بالستر مغر ورًا، وبمدح الناس مفتونًا، وإن ي لأخاف أن أهلك بهما وبقلة الشكر عليهما.

فدعا بدواة وقرطاس.

فكتبه أمير المؤمنين هارون الرشيد:

فقال أبو العباس محمد بن صبيح بن سماك في حضرة الرشيد:

بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ :

ما يساوى ألف من الخلف واحدًا من السلف، بين الخلف خلف بينهم السلف هؤلاء قوم آمنوا من خوف ربهم، وآمنت آباؤنا وأجدادنا من خوف أسيافهم.

يا أبا بكر: بلغت غاية الائتمار حيث مدحك الملك الجبار، فقال سبحانه: {إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ } [سورة التوبة الآية: ٤٠].

يا عمر: لم تكن واليًا، إنَّما كنت والدًا.

يا عثمان: قتلت مظلومًا، ولم تزل مدفونًا.

وما قولك فيمن وحَّد الله طفلاً صغيرًا - يعني: عليّ بن أبي طالب - حتى توفى كهلاً كبيرًا؟

فهذا صاحب الغار، وهذا إمام الأعصار، وهذا أحد الأخيار، مدحهم الملك الجبار وأسكنهم دار الأبرار.

خرجت والله من معدن:

كان رجل من ولد الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود يجلس في مجلس أبى العباس محمد بن صبيح بن سماك، فكان يطيل السكوت، فسأله محمد بن صبيح بن سماك:

- يا فتى: ألا تخوض فيما يخوض فيه القوم من الحديث؟

فقال الفتى:

- إنَّما قعدت لأسمع، وأنصت لأفهم، وما كان من الحديث لغير الله، فعاقبته الندم.

فقال أبو العباس:

- خرجت والله من معدن: { ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖ} [سورة آل عمران الآية: ٣٤].

والله لأجتهدنَّ حتى ألحق بهم:

وذات ضحى، كان محمد بن صبيح بن سماك جالسًا عند باب داره، إذ جاءه رجل مع بعض إخوانه فقال له:

- يا أبا العباس: لي ولد من المبرزين في العبادة، والمخلصين في

الزهادة، يقوم الليل، ويصوم النهار، ومع ذلك لا يفتر من البكاء وقد أضر ذلك ببدنه، وأنا خائف عليه أن يهلك، فلأحب أن تسأله الرفق بنفسه، فلعله ينام في الليل نو م ة واحدة يقوى بها على عبادة الله عز وجل.

فقال ابن سماك:

- نعم: إن شاء الله تعالى.

وبينما الرجل يخاطب أبا العباس، إذ طلع عليهما شاب كأنه عود بان له نور كالبدر ووجهه قد علاه اصفرار، ناحل الجسم فقال:

- يا أبا العباس: هذا ولدي.

فقال محمد بن صبيح بن سماك للشاب:

- حبيبي! إن الله قد فرض عليك طاعة أبيك ونهاك عن معصيته، وتنام في الليل نومة، فإنك تقوى بذلك على عبادة ربك.

قال الشاب:

- أما والله لقد طلب مني التقصير في العمل قبل حلول الأجل.

يا أبا العباس إنى بايعت إخوانًا على السباق، فأخشى أن تعرض أعمالي وأعمالهم فيوجد في أعمال ي دون أعمالهم تقصيرً ا، فيسوء حالي إن بادرني أجلي قبل أن أبلغ ما بلغوا.

يا أبا العباس! لو رأيت إخواني الذي بايعتُ وقد تجافت جنوبهم عن المضاجع وركبوا رواحل الظلام، وقطعوا عليها الليل والناس نيام، قد وصلوا الكلال بالكلال - الإعياء والتعب - اشتياقًا إلى ذي الجلال، أفتشير عليَّ يا شيخ بالتقصير؟ والله لأجتهدن ثم لأجتهدنَّ حتى ألحق بهم.

ثم أنشد:

وحياة من ملكت يداه قياد ي :: لأخالفنَّ على الهوى حساد ي
ولأعصين عو اذلي في حبه : ولأهجرنّ لذات ي ورقاد ي
ولأجعلن نزاهت ي فيه البكاء :: ولأكحلنَّ محاجر ي بسهاد ي
ولأحفرن بسره ضمن الح شا : قبرًا لم يعلم بذاك ف وٴادي

القبر:

حضر أبو العباس يومًا جنازة، فلما نظر إلى القبور بكى، وقال لأصحابه:

- يا معشر الإخوان: ألا منتهب لموت يوصف له ويراه أمامه؟

ألا مستعد ليوم فقره ونزوله إلى حفرته وقبره؟

ألا شاب عازم قد بارز لمنيته؟

ألا من ليس بغيره شباب مزينةولا شد قوته؟

ألا شيخ فد بادر لانقضاء مدته فشمر السير فيما بقي من رمقه؟

ماذا ينتظر من دفن أباه وقبر أمه وأخاه؟

ما فرح من القبر مأواه والتراب فراشه وغطاه.

ثم أنشد:

ألا إنَّما الدنيا بلاء وفتنة : وبيت الفنى فيها مهاب مسود
إذا انقلبت عنه و زال نعيمها :: فلصبح من ترب القبور يمهد
فكن خائفًا للموت والقبر بعده : ولا تك ممن غرَّه اليوم أو غد

ودخل ابن سماك **على مريض وهو في شدة سكرات الموت** فقال له:

رحلت عن الدنيا وقامت ... غداة أقل الحاملون جنا زتي
قيامت ي
وعجل أهلي حفر قبر ي ... خروجي وتعجيلي إليه كرامتي
وصيروا ... غداة أتى يومي عليّ وساعتي
كأنهم لم يعرفوا قط صورت ي

فقال أبو العباس:

إخواني:

ما هذا لمن مضى، بل الله لمن مضى ولمن بقي.

لا بد للقبر ووحشته، ومن الموت وسكرته.

فانظروا لأنفسكم ما دام النظر ينفعكم.

وتفكروا في وحشة القبر ما دام التفكر يباح لكم، من قبل وقوع السكرة ونزول الحسرة.

الحمامة:

دخل محمد بن صبيح بن سماك يومًا على أمير المؤمنين هارون الرشيد وبين يديه حمامة تلتقط حبًا فقال له:

- صفها وأوجز.

فقال ابن سماك:

كأنَّما تنظر من ياقوتتين، وتلتقط بدرتين، وتطأ على عقيقتين.

وأنشد:

هتفت هاتفة آ ::: ذنها إلفٌ ببين
ذات طوق مثل عطف ::: النون أقنى الطرفين
وتراها ناظر ة نحـ ::: ـوك من ياقوتين
ترجع ا لأنفاس ::: من ثقبين كالؤلؤتين
وترى مثل البسات يـ ::: ـن لها قادمتين
ولها لحيان كالصد ::: غين من عرعرتين
ولها ساقان حمرا ::: وان مثل الوردتين
نسجت فوق جناح يـ ::: ـها لها برنو ستين
وهي طاووسية ال لـ ::: ـون بنان المنكبين
تحت ظل من ظلال ::: الأيك صافي الكتفين
فقدت إلفًا فناحت ::: من تباريح وبين
فهي تبكيه بلا د مـ ::: ـع جمود المقلتين
وهي لا تصبغ عينا ::: هما كما تصبغ عيني

لا شيء يعدل العافية:

دخل محمد بن صبيح بن سماك يو مًا على أمير المؤمنين هارون الرشيد، **فوافق أن وجده يرفع إلى فمه قدحًا به ماء ليشرب** فقال:

- ناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تنتظر به قليلاً.

فوضع أمير المؤمنين قدح الماء جانبًا.

فقال أبو العباس:

- أستحلفك بالله تعالى يا أمير المؤمنين: لو أنك منعت هذه الشربة من الماء فبكم كنت تشتريها؟

قال أمير المؤمنين هارون الرشيد:

- بنصف ملكي.

قال محمد بن صبيح بن سماك.

- اشرب هنأك الله.

فلما شرب أمير المؤمنين فقال ابن سماك:

أستحلفك بالله تعالى، لو أنك منعت خرجها من جوفك بعد ه ذا، فبكم كنت تشتريها؟

قال أمير المؤمنين هارون الرشيد:

- بملكي كله.

فقال أبو العبلس:

- يا أمير المؤمنين، إن ملكًا تربو عليه شربة ماء، وتفضله بولة واحدة، لخليق ألا ينافس فيه.

فبكى هارون الرشيد حتى ابتلت لحيته.

فقال الفضل بن الربيع أحد وزراء أمير المؤمنين:

- مهلاً يا ابن سماك، فلمير المؤمنين أحق من رجا العافية عند الله بعدله في ملكه.

فقال محمد بن صبيح بن سماك:

- يا أمير المؤمنين، إن هذا ليس معك في قبرك غدًا، فانظر لنفسك فلنت بها أخبر وعليها أبصر.

ثم نظر أبو العباس نحو وزير أمير المؤمنين وقال له:

- وأما أنت يا فضل: فمن حق الأمير عليك أن تكون يوم القيامة **من حسناته لا من سيئاته فذلك أكفلما تؤدى به حقه عليك لا شيء أجلّ من العافية، ولا يدوم ملك إلا بالعدل، ولا ينفع نفسًا إلا بالعدل، ولا ينفع نفسًا إلا ما قدمت** :{يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا} [سورة الدخان الآية: ٤١]، و{لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ} [سورة الروم الآية: ٥٧].

الواعظ والطبيب:

يقول ابن سماك:

كنت كثيرًا ما أطلب الزهاد والعُبَّاد، فذكر لي رجل من الزهَّاد بعبادان - بلدة بإيران اليوم - فخرجت في طلبه حتى أتيت عبادان فسألت عن منزله فرشدت إليه، فقرعت عليه الباب فخرجت جارية وسألتني:

- ما شأنك أيها الطارق؟

قلت:

- أريني منزل فلان.

قالت الجارية:

- عليه وقعت، فما حاجتك؟

قلت:

- أحب أن تستأذنيه لي في الدخول عليه.

فدخلت، فإذا برجل قد احتفر قبرًا ووضع فيه رجليه وبيده خوص يصنعه وهو يتلو هذه الآية: {أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ} [سورة الجاثية الآية: ٢١].

فسلمت عليه فرد على السلام وقال:

- ما اسمك؟

قلت:

- محمد.

قال:

- ابن من؟

قلت:

- ابن السماك.

قال:

- لعلك الواعظ؟

قلت:

- أجل.

قال:

- إن الواعظ عندي بمنزلة الطبيب، وبي داء أعيا المعالجين قبلك، فعسى أن تناله برفقك وتلصق عليه بعض مراهمك مما تعلم أنه يلائمه منها.

فقلت:

- يا أخي: إن العمر قد ولَّى، والضعف قد تولىَّ، وإن كاتبيك قد حفظا عليك ما سلفك من قبح العمل، ولعل المنية تعاجلك قبل إدراك الأمل.

قال ابن سماك:

فلما سمع ذلك لم يتمالك أن شهق شهقة وخر مغشيًا عليه.

فأقبلت امرأته وابنته تبكيان من خلف الستر، وبقى كذلك طويلاً حتى أفاق وقال:

- يا ابن السماك قد وافق دواؤك داءي، ولصق مرهمك بجلد ي، زدني فإن المرهم إذا خف اندمل الجرح والْتَأَم.

فقلت:

- يا أخي: نحن على يقين من ذنوب سلفت، وفي شك من قبول توبة، فإن جاد بالفضل فأين ذبول الخجل خشية العتاب؟ وإن قضى

بالعدل فاين تحول الرجل خيفة العقاب؟

فصرخ الرجل صرخة عظيمة وخرَّ مغشيًا عليه.

ومكث طويلاً ثم أفاق وقال:

- أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدً ا عبده ورسوله.

ثم سكن طويلاً فحركته... فإذا هو ميت.

فقهت في أول أمرها وبدء ظهورها:

قال أبو العباس:

إن نفرًا وردوا على عجور في بعض البوادي يسألونها بيع شاة.

فقالت العجور:

- ما كنت لأبيع ابن السبيل شيئًا، ولكن خذوها على ما عند الله.

ثم بكى محمد بن صبيح بن سماك وقال:

- رحمها الله فقهت في بدوها - في أول أمرها وبدء ظهورها -.

قبرت نفسك قبل أن تُقْبَرَ:

لما مات داود بن نصر الطائي قال ابن سماك:

يا أيها الناس:

إن أهل الدنيا تعجَّلُوا غموم القلب وهموم النفس وتعب ا لأبدان مع شدة الحساب، فالرغبة متعة لأهلها في الدنيا والآخره، والزهادة راحة لأهلها في الدنيا والآخرة، وإن داود نظر بقلبه إلى ما بين يديه - أمامه - فأعشى بصر قلبه بصر العيون، فك أنه لم يبصر ما إليه تنظررن، وكأنكم لا تبصرون ما إليه ينظر، فأنتم منه تعجبون، وهو منكم يتعجب، فلما نظر إليكم راكبين مغرورين، قد ذهبت على الدنيا عقولكم، وماتت من حبها قلوبكم، و عشقتها أنفسكم، وا متدت إليها

أبصاركم، استوحش الزاهد منكم، فكنت إذا نظرت إليه عرفت أنه من أهل الدنيا وحش، وذلك أنه كان حيا وسط موتى.

يا داود:

ما أعجب شأنك، وقد يزيد في عجبك أنك من أهل زمانك ألزمت نفسك الصمت حتى قومتها على العدد، أهنتها وإنَّما تريد كرامتها، وأذللتها وإنَّما تريد إعزارها، ووضعتها وإنما تريد تشريفها، وأتعبتها وإنما تريد راحتها، وأجعتها وإنما تريد شبعها، وأظم أتها وإنَّما تريد ريَّها، وخشنت الملبس وإنَّما تريد لينه، وأمتَّ نفسك قبل أن تموت، وقبرتها قبل أن تُقْبَر، وعذبتها قبل أن تعذب، و غيبتها عن الناس كي لا تذكر، ورغبت بنفسك عن الدنيا، فلم تر قدرً أ ولا خطرًا، ورغبت بنفسك عن الدنيا، عن أزواجها ومطامعها وملابسها إلى الآخرة، وأزواجها ولباسها وسندسها وحريرها واستبرقها، فما أظنك إلا قد ظفرت بما طلبت، وظفرت بما فيه رغبت.

إن ربك لا يضيع مطيعًا، ولا ينسى صنيعًا، يشكر لخلقه ما صنع فيما أنعم عليهم أكثر من شكرهم إياه.

فسبحانه شاكرًا مجازيًا مثيبًا.

قتلتم ولدي:

يقول محمد بن صبيح بن سماك:

دخلت البصرة، فقلت لرجل كنت أعرفه:

- دلّني على عُبَّادِكم.

فأدخلني على رجل عليه لباس الشعر، طويل الصمت لا يرفع رأسه إلى أحد.

فجعلت أستنطقه الكلام فلا يكلمني.

فخرجت من عنده فقال صاحبي:

- هاهنا ابن عجور هل لك فيه؟

قلت:

- نعم.

فدخلنا عليه، فقالت العجور:

- لا تذكروا لابنى شيئًا من ذكر جنة ولا نار فت وتلوه على فإنه ليس لي غيره.

فدخلنا على شاب عليه اللباس نحو ما على صاحبه منكس الرأ س طويل الصمت، فرفع رأسه فنظر إلينا ثم قال:

- أما إن للناس موقفًا لابد أن يقفوه.

فقال أبو العباس:

- بين يدي من رحمك الله؟

فشهق الشاب شهقة فمات.

فجاءت العجور فقالت:

- قتلتم ولدي.

يقول ابن سماك:

فكنت فيمن صلى عليه.

بين يدي أمر المؤمنين:

أراد محمد بن صبيح بن سماك يومًا أن يدخل على أمير المؤمنين هارون الرشيد فلقيه يحيى بن خالد البرمكي وقال له:

- إذا دخلت على هارون أمير المؤمنين فلوجز ولا تكثر عليه.

فلما دخل أبو العباسي على أمير المؤمنين وقام بين يديه قال:

- يا أمير المؤمنين: إن لك بين يدي الله تعالى م قامًا، وإن لك من مقامك منصرفًا، فانظر إلى أين منصرفك، إلى الجنة أم إلى النار؟

فبكى أمير المؤمنين هارون الرشيد حتى كاد يموت.

ما أنت قائل؟

سال أبو عبد الله الخرزى أبا العباس:

- أخبرني عن أعجب شيء رأيته من الخائفين؟

قال محمد بن صبيح بن سماك:

اشتقت إلى عباد البصرة فلأتيت الربيع بن صبيح فنزلت عليه ثم قلت له:

- هل تعرف هاهنا أحدًا من الخائفين؟

قال الربيع بن صبيح:

- نعم هاهنا زاهد يُقال: **إنه من الخائفين.**

فقال أبو العباس:

- فبكر بنا إذا صلينا.

فبكرنا إلى بعض زوايا البصرة، فدق الربيع بن صبيح بابًا فخرجت عجور فسلَّم عليها ثم قال:

- ماذا فعل ابنك؟

قالت العجور:

- إن ابنى قد نسى الدنيا.

قال الربيع بن صبيح:

- أتأذنين لنا أن ندخل عليه؟

فقالت الأم:

- بشرط أن لا تذكروا له القيامة.

فأذنت لنا فدخلنا، فإذا شاب عليه مدرعة شعر، وفي عنقه طوق وسلسلة مشدودة بسارية البيت، فإذا قبر محفور وإذا هو جالس على شفير القبر ينظر في لحده.

فقال الربيع بن صبيح:

- يا هذا: أخوك محمد بن سماك الهُذَكِّر أتاك زائرًا.

فالتفت الشاب إلى أبي العباس وقال له:

- ما أنت قائل؟

فتلجلج لساني وهبت فجهدت الجهد أن أنطق فما قدرت.

فخرجنا يومئذٍ.

ثم عدت في اليوم الثاني، فإذا هو على حافة القبر التي رأيناه بالأمس فالتفت إليَّ وتساءل:

- ما أنت قائل؟

فتلجلج لساني ثم قلت:

- إن للعبدِ مقامًا.

فقال الشاب:

- ويحك! عند من؟

قلت:

- عند مالك الملوك.

فشهق الشاب شهقة فإذا هو ميت في قبره.

لِمَ تشغلونا عن ربنا؟

قال صالح المري:

قدم علينا ابن سماك مرة فقال لي:

- أرني بعض عجائب عبَّادكم.

فذهب صالح المري بابن سماك إلى رجل في بعض الأحياء في خص له فاستأذنا عليه فدخلا، فإذا رجل يعمل خوصًا لي فقر أ صالح المري:

{ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ } [سورة غافر الآيات: ٧١ - ٧٢].

فشهق الرجل، فإذا هو قد يبس مغشيًا عليه.

فخرجا من عنده وتركاه على حاله.

وذهب أبو العباس وصالح المري إلى آخر فاستأذنا عليه فقال:

- ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا.

فدخلا فإذا رجل جالس في مصلى له، فقرأ صالح المري:

{ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ } [سورة إبراهيم الآية: ١٤].

فشهق الرجل شهقة بدر - أسرع - الدم من منخريه ثم جعل يتشحط في دمه - تشحط الدم: تضرج به - حتى يبس.

فخرجا من عنده وتركاه على حاله.

وصحب صالح المري أبا العباس إلى ستة أنفس، كل يخرجا من عنده وهو على هذه الحاله.

ثم أتى صالح المري بابن سماك إلى عابد سابع، فاستاذن فإذا امرأة له من وراء خص تقول:

- ادخلو ا.

فدخلا فإذا شيخ فانٍ جالسٌ في مصلاه.

فسلما عليه فلم يعقل سلامهما.

فقال صالح المري بصوت عال:

- إن للخلق غدًا مقامًا.

فقال الشيخ:

- بين يدي - أمام - من ويحك؟

ثم بقى مبهوتًا فاتحًا فاه شاخصًا بصره يصيح بصوت له ضيف حتى انقطع.

فقالت امرأته:

- اخرجوا عنه فإنكم ليس تنتفعون به الساعة.

فلما كان بعد ذلك سأل صالح المري عن القوم - العبلة - فإذا ثلاثة قد أفاقوا وثلاثة قد لحقوا بالله عز وجل.

وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حالته مبهوتًا متحيرًا لا يؤدي فرضًا، فلما كان بعد ثالثة عقل.

أبو العباس يكتب إلى أخ له:

كتب محمد بن صبيح بن سماك.

أما بعد:

أوصيك بتقوى الله الذي هو ناج يك في سريرتك، ورقيبك في علانيتك، فاجعله من بالك على حالك، خَ فْ بقد ر قربه منك وقدرته عليك، واعلم أنك بعينه - أي تحت مراقبته ونظره - ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، فليعظم منه حذرك وليكثر منه وجلك - الوجل: الخوف -، واعلم أن الذنب من العاقل أعظم منه من الأحمق - ومن العالم أعظم من الجاهل - وقد أصبحنا أدلاء بزعمنا، والدليل لا ينام في البحر، وقد كان عيسى - عليه السلام - يقول:

حتى متى تصفون الطريق للدالجين - دلج: سار من أول الليل - وأنتم مقيمون في محلة المتحيرين؟

تصفون البعوض من شرابكم وتشترطون - سرط الش يء واسترطه: ابتلعه - الجمال بلحمالها.

أي: أخي كم من مذكر بالله ناس لله، وكم من مخوف بالله جريء على الله وكم من داع إلى الله فار من الله، وكم قال - قار ئ - لكتاب الله منسلخ من آيات الله.

والسلام.

السوط:

قال محمد بن صبيع بن سماك:

أذنب غلام امرأة من قريش ذنبًا فسعت المرأة إليه بالسوط، فلما قربت منه رمت بالسوط وقالت:

- ما تركت التقوى أحدًا يشفى غيظه.

كان حيا وسط موتى:

حين مات العارف بالله داود الطائي قال محمد بن صبيح بن سماك:

يا أيها الناس:

إن أهل الدنيا تعجَّلُوا غموم القلب وهموم النفس وتعب ا لأبدان م ع شدة الحساب، فالرغبة متعبة لأهلها في الدنيا وا لآخر ة، والزهاد ة راحة لأهلها في الدنيا والآخرة، وإن داود الطائ ي نظر بقلبه إلى ما بين يديه - أمامه - فلعشى بصر قلبه بصر العيون، فكأنه لم يبصر ما إليه تنظرون، وك أنكم لا تبصرون ما إليه ينظر، فأنتم منه تعجبون وهو منكم يتعجب، فلما نظر إليكم راكبين راغبين مغرورين قد ذهبت على الدنيا عقولكم وماتت من حبها قلوبكم وعشقتها أنفسكم، وامتدت إليها أبصاركم، استوحش الزاهد منكم؛ لأنه كان حيًا وسط موتى.

يا داود:

ما أعجب شأنك، ألزمت نفسك الصمت حتى قومتها على العدل، أهنتها وإنما تريد كرامتها، وأذللتها وإنما تريد إعزارها، ووضعتها وإنما تريد تشريفها، وأتعبتها وإنَّما تريد راحتها، وأجعتها وإنَّما تريد شبعها، وأظماتها وإنَّما تريد ريها، وخ شنت الملبس وإنَّما تريد لينه، وجشبت المطعم - جعلته غليظًا - وإنَّما تريد طيبه، وأمت نفسك قبل أن تموت، وقبرتها قبل أن تُقبر، وعذبتها قبل أن تعذب، و غيبتها عن الناس كي لا تذكر، وغبت بنفسك عن الدنيا إلى الآخرة، فما أظنك إلا قد ظفرت بما طلبت كأن سيماك في عملك وسرك ولم يكن سيماك في وجهك فقهت في دينك ثم الناس يفتون، وسمعت الأحاديث ثم تركت الناس يحدثون ويروون، وخرست عن القول وتركت الناس ينطقون، لا تحسد الأخيار ولا تعجب الأشرار ولا تقبل من السلطان عطية ولا من الإخوان هدية، آنس ما تكون إذا كنت بالله خاليًا وأوحش ما تكون إذا كنت مع الناس جال سرًا، فلأوحش ما تكون آنس ما يكون الناس، وآنس ما تكون أوحش ما يكون الناس جاوزت حد - جهد - المسافرين في أسفارهم، وجاوزت حد المسجونين في سجونهم، فأما المسافرون فيحملون من الطعام والحلاوة ما يأكلون، فلما أنت فإنَّما هي خبزتك أو خبزتان في شهرك ترمي بها في دن - إناء أو وعاء – عندك ، فإذا أفطرت أخذت منه حاجتك فجعلته في مطهرتك ثم صببت عليه من الماء ما يكفيك، ثم اصطنعت به ملحًا فهذا إدامك وحلواك، فمن سمع بمثلك صبر صبرك أو عزم عزمك، وما أظنك إلا قد لحقت بالماضين، وما أظنك إلا قد فضلت الآخرين، ولا أحسبك إلا قد أتعبت العابدين، وأما المسجون فيكون مع الناس محبوسًا ف أنس بهم، وأما أنت فسجنت نفسك في بيتك وحدك، فلا محدث ولا جليس معك، ولا أدرى أي الأمور أشد عليك: الخلوة في بيتك تمر بك الشهور والسنون

أم تركك المطاعم والم شارب، لا ستر على بابك، ولا فرا ش تحتك، ولا قلة يبرد - تبرد - فيها ماؤك، ولا قصعة يكون فيها غذ اؤك وعشاؤك؟ مطهرتك قلتك وقصعتك تورك - التور: إناء صغير - وكل أمرك يا داود عجب، أما كنت تشتهي من الماء بارده ولا من الطعام طيبه ولا من اللباس ليِّنه؟

بلى ولكنك زهدت فيه لما بين يديك فما أصغر ما بذلت، وما أحقر ما تركت، وما أيسر ما فعلت في نجنب ما أملت، أما أنت فقد ظفرت - فزت - بروح العاجل وسعدت إن شاء الله في الأجل، عزلت شهرة عنك في حياتك لكي لا يدخلك عجبها ولا يلحقك فتنتها، فلما مت شهرك ربك بموتك وألبسك رداء عملك، فلو رأيت اليوم قوة تبعك عرفت أن ربك قد أكرمك.

ولما دُفِنَ داود الطائي قام أبو العباس على قبره وقال:

يا داود كنت تسهر ليلك إذ الناس نائمون - ينامون -.

فقال القوم جميعًا:

- صدقت.

فقال محمد بن صبيح بن سماك:

وكنت تسلم إذ الناس يخوضون، وكنت تربح إذ الناس يخسرون.

فقال الناس جميعًا:

- صدقت.

حتى عدد أبو الفضل فضائل داود الطائي كلها.

محمد بن صبيح وأحاديث رسول الله ﷺ :

أسند محمد صبيح بن سماك عن عدة من التابعين، منهم: إسماعيل بن أبي خالد، والأعمش، وهشام.

قال محمد بن صبيح بن سماك عن إسماعيل بن أبى خالد عن قيس عن جرير قال:

قال رسول الله:

♂**من لا يَرْحَم لا يُرْحَم، ومن لا يغفر لا يُغْفَرُ له، ومن لا يتب لا يتوب الله عليه**ـــ (رواه الطبراني في المعجم الكبير عن جرير).

قال محمد بن صبيح بن سماك عن هشام بن عروة عن عرو ة بن الزبير عن عائشة قالت:

قال رسول الله ﷺ :

♂**إذا حضر العشاء وأُقيمت الصلاة، فابدؤا بالعشاء**ـــ (رواه أبو نعيم في الحلية، عن عائشة).

وقال محمد بن صبيح بن سماك عن الأعمش عن سفيان عن عبد الله بن مسعود قال:

قال رسول الله ﷺ :

♂**ما من عبد يخطو خطو ة إلا سُئِلَ عنها ما أراد بها** ـــ (رواه أبو نعيم في الحلية، عن ابن مسعود).

وقال محمد بن صبيح بن سماك، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبى هريرة قال:

قال رسول لله ﷺ :

♂**لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في جسده وماله وولده، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**ـــ (رواه الإمام أحمد، وابن حبان، والحاكم في المستدرك، عن أبي هريرة).

وقال محمد بن صبيح بن سماك، عن محمد بن عمرر، عن أبي سلم ة، عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ :

♂**يدخل فقراء المؤمن ين الجنة قبل أ غنيائهم بيوم مقداره ألف عام**ـــ (رواه أبو نعيم في الحلية، عن أبي هريرة).

وقال محمد بن صبيح بن سماك عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ :

♂**المراء في القر آن كفر** ـــ (رواه أبو داود، والحاكم في المستدرك عن أبى هريرة).

المراء: الجدل.

وقال محمد بن صبيح بن سماك عن جبير عن الحسن عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ عن ربه عز وجل:

♂**ابن آم، اذكرن ي بعد الفجر وبعد العصر أكفك ما بينهما** ـــ (رواه أبو نعيم في الحلية، عن أبي هريرة).

وقال محمد بن صبيح بن سماك، عن العوام بن حوشب، عن أبى هريرة قال:

♂**أوصاني خليلي بصوم ثلاثة أيام من كل شهر - الثلاثة البيض -، وأن أوتر قبل النوم - لا أنام إلا على وتر - وبصلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين**ـــ (رواه أبو نعيم في الحلية، عن أبى هريرة).

وقال محمد بن صبيح بن سماك عن إبراهيم بن أبي يحيى عن أبان عن أنس قال:

♂**رأيت رسول الله ﷺ يدعو رافعًا يديه باطنهما مما يلى وجهه**ـــ (رواه أبو نعيم في الحلية، عن أنس).

وقال أبو العباس محمد بن صبيح عن إبراهيم بن أبي يحيى عن جبر بن عبد الله عن عكرمة، عن عبد الله بن عباس قال:

♂**رأيت رسول الله ﷺ عشية عرفة يدعو ويديه عند صدره كاستطعام المسكين**ـــ. (رواه أبو نعيم في الحلية، عن ابن عباس).

وقال أبو العباس محمد بن صبيح بن سماك عن يزيد بن أبي زياد عن المسيب بن رافع عن عبد الله بن مسعود قال:

قال رسول الله ﷺ :

♂**لا تشتروا السمك في الماء فإنه غرر**ـــ (رواه الإمام أحمد والبيهقى في السنن عن عبد الله بن مسعود).

وقال محمد بن صبيح بن سماك، عن عبد الله بن مسعود، قال:

قال رسول الله ﷺ :

♂**ليتق أحدكم وجهه من النار ولو بشق تمرة**ـــ (رواه الإمام أحمد، وأبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن مسعود).

وقال محمد بن صبيح بن سماك، عن سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب قال:

كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه وضع يده اليمنى تحت الأذن وقال:

♂**اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك**ـــ (رواه أبو نعيم في الحلية عن البراء بن عازب).

وقال أبو العباس محمد بن صبيح بن سماك عن أشعث بن سعد عن يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن عمر، قال:

قال رسول الله ﷺ :

♂**رضاء الرب في رضاء الوالدين، وسخطه في سخطهما** ـــ (رواه الطبراني في المعجم الكبير، عن ابن عمر).

وقال محمد بن صبيح بن سماك عن عائذ بن بشير عن عطاء عن عائشة قالت:

قال رسول الله ﷺ :

♂**من بلغ الثمانين من هذه الأمة، لم يعرض ولم يحاسب وقيل: ادخل الجنة**ـــ. (رواه أبو نعيم في الحلية عن عائشة).

قال ابن سماك، عن الهيثم، عن يزيد الفراشي عن أنس بن مالك قال:

قال رسول الله ﷺ :

♂**ما من صوت أحب إلى الله من صوت لهفان، عبد أصاب ذنبًا فكلما ذكر ذنبه امتلأ قلبه فرقًا - خوفًا من الله فقال: يا رباه** ـــ (رواه الحكيم وأبو نعيم في الحلية والديلمى، عن أنس).

وقال أبو العباس محمد بن صبيح بن سماك عن مبارك بن فضالة عن الحسن عن سمرة، عن النبي ﷺ قال:

♂**من سرَّه أن يعلم ما له عند الله، فليعلم ما لله عنده** ـــ (رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة وسمرة).

وقال محمد بن صبيح بن سماك، عن الأجلح عن نافع، عن ابن عمر قال:

قال النبي ﷺ :

♂**من أتى الجمعة - من الرجال والنساء - فليغتسل** ـــ (رواه

الإمام أحمد، والنسائي، وابن ماجه).

وقال أبو العباس محمد بن صبيح بن سماك عن أبى سلمة عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ :

♂**إنَّ أصدق كلمة قالها الشاعر - لبيد بن ربيعة -:**

ألا كل شيء ما خلا الله باطلٌ ∴ وكل نعيم لا محال ة زائل

* وقد **أسند أبو العباس** محمد بن صبيح بن سماك عن عدة من التابعين منهم: إسماعيل بن أبى خالد، والأعمش سليمان بن مهران، وهشام بن عروة بن الزبير.

وروى عنه من الأئمة: حسين الجعفي، ويحيى بن يحيى النيسابوري، وأحمد بن حنبل.

أبو العباس محمد بن صبيح يقرأ القرآن ويتفكر ويتدبر:

قرأ الخليفة المأمون سورة مريم وعنده جماعة من الفقهاء، فمرَّ بقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾} [سورة مريم الآيات: ٨٣ - ٨٤].

فطلب منهم أن يفسروا ذلك، فقالوا:

تزعجهم إزعاجًا من الطاعة إلى المعصية وتغريهم إغراء بالشر حتى توقعهم في النار.

فقال الخليفه المأمون:

{إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا }.

قالوا:

آجالهم يعني: الأيام، والليالي، والشهور، والسنين إلى انتهاء أجل العذاب والأنفاس والخطوات واللَّذَات، فلا تعجل عليهم فإنما نؤخرهم ليزدادوا إثمًا.

فلشار المأمون برأسه نحو أبي العباس محمد بن صبيح أن يعظه.

فقال ابن سماك:

إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد.

حياتك أنفاس تعد فكلما :: مضى نفس منك انتقصت به جزءًا
يميتك ما يحييك في كل ليلة :: ويحدوك حاد ما يريد به الهزءا

سُئل ابن السماك:

لو أقامك الله عز وجل يوم القيامة بين يديه، فقال لك: {مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ} [سورة الانفطار الآية: ٦]، ماذا كنت تقول؟

قال محمد بن صبيح بن سماك:

كنت أقول:

غرَّنِي حمقي وجهلي، وإمهاله لي وستره فهو الكريم الستار.

ثم أنشأ يقول:

يا كاتم الذنب أما تستحي :: والله في الخلوة ثانيكم
غرَّك من ربك إمهاله :: وستره طول مساويكا

وسأل رجل أبا العباس عن قوله تعالى: { إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾} [سورة فاطر الآية: ٦].

قال محمد بن صبيح بن سماك:

يا عجبًا لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه، وأطاع اللعين

بعد معرفته بعداوته.

وقرأ ابن سماك قو ـله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ} [سورة التحريم الآية: ٨].

فقال لأصحابه:

قال رسول الله ﷺ :

♂**النصوح: الصادقة الناصحة**ـــ.

وقيل:

الخالصة.

ثم قال أبو العباس محمد بن صبيح بن سماك:

أن ترهرب الذنب الذي أقللت فيه الحياء من الله أمام عينيك وتستعد لمنتظرك.

من أقوال محمد بن صبيح بن سماك:

قال أبو العباس محمد بن صبيح بن سماك:

* يا ابن آدم: إنَّما تغدو في كسب الأرباح فاجعل نفسك فيما تكسبه فإنك لم تكسب مثلها.

*** من امتطى الصبر قوى على العبادة، ومن أجمع الي أس استغنى عن الناس، ومن أهمته نفسه لم يول مرمتها - أي: لم يتول إصلاحها أحد غيره - غيره، ومن أحب الخير وفق له، و م ن كره الشر جنبه، ومن رضى الدنيا من الآخرة حظًا فقد أخطأ حظ نفسه.**

* إن استطعت أن تكون كرجل ذاق الموت وعاش ما بعد ، فسأل الرجعة فاسرع بطلبه وأعطى حاجته فهو متأهب مبادر، فافعل فإن المغبون - غبن خدع، المغون: المخدوع - من لم يقدم من ماله شيئًا ومن نفسه لنفسه.

* **الآخذ بالأصول وترك الفضول من فعل ذوي العقول.**

* إن الله م لأ الدنيا من الـلَّذات، وحشاها با لآفات، ومزج حلالها بالمؤونات وحرامها بالتبعات.

* تكلم ابن سماك يومًا وجاريته تسمع كلامه فقال لها:

- كيف سمعت كلامي؟

فقالت:

- هو حسن لولا أنك ترددد.

فقال أبو العباس:

- أرددد كي يفهمه من لم يفهمه؟

فقالت:

- إلى أن يفهمه من لم يفهمه؟

* كتب رجل من أهل بغداد إلى أبي العباس:

- صف لي الدنيا؟

فقال محمد بن صبيح بن سماك:

أما بعد:

فقال حفها بالشهوات وم لأها بـلآفات، ومزج حلالها بالم ؤونات وحرامها بالتبعات، حلالها حساب وحرامها عذاب.

والسلام.

* الناس عندنا ثلاثة:

زاهد، وراكب، وصابر.

فأما الزاهد: فلا يفرح بما يؤتى منها - الدنيا -، ولا يحزن على ما فاته منها.

والصابر: القلب منها مثلان، فهو في الظاهر زاهد، وفي الباطن صابر، ما أشبهه بالزاهد وليس هو به.

وأمَّا الراغب: فأولئك في خوض يلعبون، مفصحون لا يشعرون.

* همَّ ة العاقل في النجا ة والهرب، وهمَّة الأحمق في اللهو والطرب.

* دخل على بعض الرؤساء يشفع إليه في رجل فقال له:

- إنى أتيتك في حاجه، وإن الطالب والمطلوب منه عزيزان إن قضيت الحاجة، ذليلان إن لم تقضها، فاختر لنفسك عز البذل عن ذل المنع، واختر لي عز النجع على ذل الرد.

فقضى حاجته.

*** من جرعته الدنيا حلاوتها بميله إليها جرعته الآخرة مرارتها بتجافيها عنه.**

*** عجبًا لعين تلذ بالرقاد وملك الموت معه على وساد.**

*** اعلم أن للموعظة غطاء، وكشف غطائها التفكر، ولحاجتك إلى العظة أكثر من حاجتك إلى الصلة، وأخاف أن لا تجد لها موضعًا في عقلك مع ما فيها من هموم الدنيا.**

*** لا تسأل من يفر منك إن تساله :: ولكن سل من أمرك أن تس أله**

وفاة محمد بن صبيح بن سماك:

لما حضرت ابن سماك الوفاة قال:

اللهم إن ي وإن كنت عصيتك لقد كنت أحب فيك من يطيعك، فحسبي من ثوابك النجاة من عقابك.

وتوفى أبو العباس محمد بن صبيح بن سماك في الكوفة، سنة ثلاث وثمانين ومائة بالكوفة.

* * *